# أبناء الآخرين

قصة بقلم محمود الريماوي

## ١ ـ طفل غزير الاحلام

عندما اندس في فراشه الصغير ، ظلت الجمل المتوترة تقرع اذنيه . ولم يكن النوم بالنسبة له مشكلة مستعصية ، فهو سرعان ما يستغرق فيه ، وينفصل عن الوجوه التي تحيطه ولا تمنحه ولو كسرة من طمانينة . لكن الصمت الذي يطوقه كان يحتمل أكثر من تاويل ، ولم يجد صعوبة في مقارنته بتلك الليلة التي سافرت فيها امه ، ولم تعد .

شعر ان الفراش تحت جسده ، يابس وكانه ينام على أرض عارية . أما الغطاء فلم تكن ثمة حاجة ماسة له ، ما دامت تلك الليلة شديدة القيظ . أراد أن يتحرر من الغطاء ، بيد انه خشي أن ترتطم عيناه بوجه أبيه ، الحافل بترقب قلق ، فسحب الغطاء حتى أخفى وجهه . بغتة ، نهضت أمام وجهه حكايا جدته عن الغولة والجنيات ، فتعرف الى الحقد . انساب على خديه خطان من سائل ساخن ، استطاع أحدهما أن يصل شفته العليا ، فادرك طعم الملح .

أما أن الفراش يابس ، والغطاء ثقيل ، فان هذا لم يعد من الاهمية بمكان . ذلك ان الغابة لا احد ينام فيها من البشر . كان محاصرا بالوحدة ، وكانت الدنيا نهارا بدون شمس .

حاول أن يتذكر من الذي أحضره الى هذا المكان الذي يخشى حتى أن يتصوره ، فلم يفلح . وفي كل لحظة كان ينتظر وحشا يقفز عن شجرة عالية ، ويقبض عليه من كتفيه ليتيمه في بطنه . قال الطفل : ساعود الى البيت واضرب خالتي بحجر ، ولن أحب أبي بعد هذا اليوم ، وسابيع جرائد واشتري ما أريد . اين بيتنا ؟ سأل نفسه ، وندم لانه لم يحفظ الجهات الاربع . اخذ يركض بلا توقف ، وكانت الاشجار تركض معه ، وأصوات مجهولة تطارده . وعندما انهكه التعب ، كان جدار من الحجارة ينتصب أمامه ، فاسقط في يده . وانبثقت من حنجرته صرخات مذبوحة ، فيما هو يقعي على مقربة من الجدار . وما هي الا لحظة نزقة ، حتى اقترب منه حيوان أشبه بالكلب ، غير أن رأسه ليس مستطيلا ، ولا ينبح . ومن غير أن يفكر ، كان يمشي معه ، وكأنه ابن الجيران ، ثم خرج الحيوان صوب عراء مجاور ، وعندما اقتربا من مقارة تبدو من الخارج صغيرة ، اخذ الحيوان يخفف من سرعته ، ودعاه بعينيه الى الدخول ، ولم يبذل جهدا في الاستجابة . انساب الحيوان الى الداخل بحركة رياضية مدربة ، وتهيأ الطفل بدوره للدخول .. حتى رأسه ، ودفع بجسمه الصغير ، الا ان رأسه اصطدم بحافة الباب العلوية ، وعندها تذكر جدته ، وكان الضبع في الداخل يتمطى بارتياح .

أطلق الطفل صرخة ذعر ، أحدثت ثقوبا دامية في جدار الصمت. هدهدته خالته وساد صمت أخرس ، وكأن الصرخة تحمل نبوءة ما .

## ٢ ـ رجل لم ينتظرها

حدث الرجل نفسه ، لم افرح بهذا البيت بعد ، ومع ذلك لن يصلونا . لم يكن يصدق نفسه ، وكان يرتعد . من ساعة الصبح ، من ساعة ما أشعلوها لم يتناول لقمة واحدة ، واكتفى بالتهام السجائر . شعر بالتشوش فقذف رأسه بين راحتيه ، وود لو كان يملك ترانزيستور اخر كي يلاحق الانباء والبيانات . وصلوا المدينة المقدسة ، والجنود يقتتلون في الشوارع مع الاهالي . التصق الرجل في ركن البيت القصي ، وقال لنفسه : متى تتوقف ؟ ولم يتوقف قلبه عن الخفقان . احس بخجل غامر وقال : « والدي هو السبب » . أيقن انه في منتصف الخطر ، وفي هذا الوقت المتأخر لا يسأل أحد عن أحد ، فمن اين له الطعام ؟ ولم يشعر بوطأة الصيام القسري ، بل نبتت على أطراف رأسه آذان جديدة مستيقظة .

بم . بم ب ـ وصلونا . بم . بم . بم . ـ أين نهرب ؟ بم ـ ساموت كالفطيسة . بمبم ـ لو اني كشقيقي في الكويت . وتتالت الانفجارات ، وازداد التصاقا بركن البيت .

في الاسبوع الذي سبق عندما عملوها وهمية ، ذهب الى دار السينما . وتفرج كيف تمطر القنابل ، وكيف ينام الموتى بين الخرائب والانقاض ، ولا من يسال ، وكيف تزلزل البيوت من فوق . وعندما خرج مع الحشر مذهولا ، أصابه الاسف على قروشه التي ذهبت هدرا . وقصد أحد المحلات ليشتري مرآة جديدة ، وعاد الى البيت سليما ، وبالغ في السفر حتى انتهت الحفلة في تلفزيون الجيران . لكن هذه لا يمكن أن تكون وهمية ، ولا يمكن أن يكون في كابوس . تصور عمره الذي مضى ، برمته كان وهميا . لماذا لم يحفر خندقا ويتزود بالطعام . لكن من كان يتصور انها ستحدث . الكلام لا يجدي ، واعصابه تتساقط . استعادوا الجبل بعد نصف ساعة ، سيهرولون الينا ، تقترب الاصوات وتقتحم اذانه بلا مقدمات . حدث انفجار جد قريب . لو كان مؤمنا لتضرع الى الله على الاقل ، وصعدت من قلبه نداءات يائسة : يا الهي ، ارحمنا . والليل قد انتصف ولم يوقفوها . آه ، الليل مخيف ، عندما تكون سلما ، فكيف بالحرب ؟ صفارة الخطر تثقب زجاج قلبه . غارة على المدينة ، غارة على مستقبله، غارة على بيته ، غارة على حياته . يا الهي ، ارحمنا . لكن كيف سيصل صوته الى الاله ، في خضم هذه الاصوات ، الثاقبة لطبلة الاذن ؟!

لو هرب بالامس لنجا . لكن من كان يتصور انها ستحدث . الخروج سيجعله عرضة للقصف المباشر ، الاختباء أفضل . للبيت رب يحميه ، لو يفعلها الاله !

بم بمبم ـ وكان دمه أصيب بصاعقة كهربائية ، فاستحال لونه ازرق . لقد انهار المطبخ ، واخذ الرجل يرتجف ، ولم يدر ماذا يستحسن عليه أن يفعل في حضرة الموت . سوف ينخرس كالعادة ، ويظل ينتظر حتى يوقفوها . ينحسر صخب الاصوات ، وتبدو العاصفة وكأنها تود أن تلتقط انفاسها . جلبة الجيران يسمعها جيدا ، هذا وقت يصلح جدا للمشاورة .

ـ هل سترحلون ؟

ـ انتظرنا في بيتك .

وعندما خرج ليستجلي الموقف ، لم يكن ثمة أحد ينتظره . وكانت معالم الطريق غامضة ، فالدخان المتصاعد يمنع الرؤية ، لكن الرجل لم يمنع نفسه من التساؤل : من كان ، من كان فقط يتصور انها ستحدث ؟!

## ٣ ـ امرأة في الشهر الاخير

مضى على أصدار صك زواجها ، أقل بقليل من عشرين عاما . وخلال هذه الاعوام الطويلة ظلت تنتظر بصبر فارغ ، أن تضع مولودا ولو أنثى . لم يكن زوجها في مساء العمر ، ولا كانت . واخذ اليأس

يتسرب اليها ، لكنها كانت تقاومه بضراوة ، وتتوسل الى حكايا اللواتي وضعن في وقت متاخر .

لكن يوما غير عادي ، أحست كما لو أن ثمة حركة في داخلها . لم تفصح لزوجها ، غير أنها هشت لهذه الفرجة من الامل . ولم يمر طويل وقت حتى انتفخ بطنها ، وتناقل الاهالي النبأ باندهاش غامر . وذات يوم جاءتها آلام المخاض . جاءها الطلق .

قالت لبعلها : ـ أحضر قابلة .

ـ أم صابر تكفي . قال لها .

وبدأ الالم يعتصرها ، وودت بصدق لو كانت عاقرا لا تنجب . وانبثقت في خاطرها سيرة شقيقاتها اللواتي كان استعدادهن في مستوى الحدث ، فجرفتها الحسرة ، وأدركت ان مصيبة ستكلفها كثيرا ، ولا بد أن تبدأ عما قريب ، فتملكها رعب أسطوري .

تحرك كيس اللحم في بطنها ، فتأوهت . أخذت أم صابر تدلك بطنها لكنها لم تستطع أن تقطع دابر الالم ، فلعنت المرأة بعلها ، ولعنت من كان السبب ، لكن أحدا لم يكترث .

ارتفع الطلق فراحت تصرخ صراخا محموما ، فانشات أم صابر في تلاوة سورة الكرسي بمهارة فائقة ، بينما المرأة تتلوى في فراش القش ، كافعى ضربت على رأسها . أما زوجها فكان خارج الغرفة ، ينتظر البشارة المستحيلة ، وهو يضبط انفاسه .

وظلت المرأة في مدار ست ساعات كاملة ، ترتقب لحظة الوضع . وبدا كما لو انها سقطت في حفرة اليأس ، فانكفأت على بعضها ، واستسلمت للنشيج .

غير ان بعلها لم ييأس ـ أو هكذا بدا ـ وتضرع الى الله أن يكون المولود صبيا .

. . . . . .

« المرأة التي تزوجت من عشرين قسرا ، لم يكن في بطنها ذكر ولا انثى ، لان الماء يكون كل شيء ، ولا يكون ذكرا ولا انثى » .

ويحكى ان الهزال استبد بالمرأة ، واجتاحتها الخيبة . أما الرجل فقد قيل انه استيقظت فيه رجولته ، وصمم أن يكون له صبي .. على الاقل مجرد صبي ، كابناء الاخرين .

## ٤ ـ يوم من رصاص

ذلك اليوم داهم البشر كانه طوفان . أشرقت فيه الشمس مبكرة على غير عادتها ، لكن الناس كانوا على عادتهم يستيقظون متاخرين . ورغم أن الفصل كان صيفا ، وان الصيف كان في منتصفه ، الا انها امطرت . امطرت بسخاء غير معهود ، ولم تحتمل الارض هذا الفيض ، فتوقف الماء في حلقها . وجرف الطوفان ، الكلاب والقطط والخراف . واصاب الدلف البيوت المتينة البنيان ، أما البيوت القديمة فقد ركمت سقوفها على من تحتها ، بما أولئك الذين يقطنون علب الزجاج ، والبيوت القماشية ، فقد اصبحوا طعما للاسماك .

وتطوع رجال الامن والوقاية ، فلم تثمر جهودهم بعد فوات الاوان.

قال أحدهم : ـ انه صيف ، كيف تمطر في الصيف ؟

قال آخر : ـ انه على كل شيء قدير .

وقال رجل بصوت أذاعي : ـ انها الارصاد الجوية الحمقاء .

لكن رجلا ، انبرى من الزحام ، وقال بصوت هادىء يرشح بالحماس والحرارة : ـ لو انتظرنا الطوفان لما حدث .. لكنه النوم ، ماذا تنتظرون من النوم ؟!

وانفض الناس ، وكل منهم مأخوذ بالحدث ، ويحدث نفسه عن ماساته ومأساة اقرب الاقارب والجيران . ولم يعد أحد يطالب الاخر بوفاء التزاماته السابقة ، وانهارت الاتفاقيات والمشاريع والاحلام السابقة .. الا أن ما يلفت الانظار ، هو عدم بقاء تقويم واحد على جدران البيوت .

عمان ( الاردن )

**محمود الريماوي**


هذا الشهر

# تشريح جثة الاستعمار

الباب

**تاليف غي دوبوشير**

ترجمة ادوار الخراط

**هذا الكتاب الجديد محاولة لتعريف الاستعمار واثبات انه ظاهرة اوروبية محض ، وهو يتلمس الصلة بين التعمير والاستعمار ، ويعقد فصلا مطولا عن التفرقة بين الاستعمار والامبريالية ، ثم يشرح كيف بسطت المسيحية ظلها على اوروبا ، وصلة ذلك بالغزوات التي كانت تتخذ من الدين قناعا لاخفاء الجوانب الاقتصادية الاساسية لظاهرة الاستعمار . ويمثل على ذلك بروح الحروب الصليبية ، في حين يثبت بالبراهين والادلة ان التوسع الاسلامي ليس بظاهرة استعمارية لا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية .**

**ويتتبع الكتاب تطور ظاهرة الاستعمار عبر عصر النهضة وبدء ظهور الراسمالية ويقوم بتحليل عميق للصلات بين الرق وبدء عصر الراسمالية وظهور الطبقات العاملة والتوسع الراسمالي في آسيا وافريقيا ، وينتهي بتحليل سقوط ظاهرة الاستعمار .**

**منشورات دار الآداب**